حول أغنية «منيون» لجوتة

«هل تعرف البلد البعيد؟»

بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

هل تعرف البلد الذي يزدهر فيه الليمون ،
في الشجر المعتم تتوهج ثمار البرتقال الذهبية ،
ريح ناعمة تهب من السماء الزرقاء ،
شجرة الريحان ساكنة والغار عال . أتعرفها حقا ؟
الى هناك ! الى هناك !
أود أن أمضي معك يا حبيبي

***

هل تعرف البيت ؟ على أعمدة يستقر سطحه
القاعة تلمع والمخدع يتألق ،
وتماثيل المرمر تقف هناك وتنظر الي
ماذا فعلوا بك ، يا طفلتي المسكينة ؟
هل تعرفه حقا ؟
الى هناك ! الى هناك !
أود أن أذهب معك يا من ترعاني

***

هل تعرف الجبل ودربه الملفوف في السحاب ؟
الدابة تبحث عن طريقها في الضباب ،
في الكهوف يسكن أبناء التنين الكبار ،
الصخر يهوي ومن فوقه الطوفان ،
هل تعرفه حقا ! الى هناك ! الى هناك !
يمضي طريقنا ! آه أيها الاب ، دعنا نذهب !

أغنية انتقلت من فم الى فم وتجولت من لغة الى لغة ، وتلقفتها أصابع الملحنين والعازفين حتى كادت تصبح ملكا للمغنين في الطرقات والحارات . أنشدتها فتاة مسكينة طوت صدرها على سرها المحزن الرهيب ، وضمنتها الحنين الذي ظل يشغل حياتها المعذبة القصيرة ، حتى طواها الموت ، سر الاسرار . لم تعرف الاجيال المتعاقبة التي سحرتها الاغنية ان كانت تعبر عن حنين صاحبتها التعسة « منيون » الى الجنوب ، بلد الدفء والنور ، أم تعبر عن شوق الشاعر الذي أنشدها على لسانها في روايته الكبرى « شيلهم ميستر » ، واختلف الشراح حول هذا البلد الذي تزدهر فيه أزهار الليمون ، ويتوهج البرتقال الذهبي ، وتهب الريح الناعمة من السماء الزرقاء ، وتقف أشجار الغار ساكنة شامخة . فانوا ان هذا البلد لا يمكن الا أن يكون في الجنوب ، ولا يمكن أن تكون هذه الاشجار والثمار والسماء الصافية الا في ايطاليا ، بلد الدفء والفن والنور ، الذي ما برح ابناء الشمال العظام يحنون اليه ويهرعون الى أحضانه ، من رسولهم المجيد « دورر » الى شاعرهم الاكبر جوته . ولم يكن من العسير عليهم أن يربطوا بين شوق الفتاة الصغيرة وبين شوق الشاعر الذي « هرب » ذات صباح من بلاد الضباب الى بلاد الشمس وسجل مشاعره عنها في « رحلته الايطالية » ، ولم يكن من العسير ايضا ان يجدوا في حياته القلقة الشفوفة بالاسرار ما يبرر حبه للشمس وشوقه الى النور .

وانتقلوا الى المقطوعة الثانية من القصيدة ، فلم يعدموا دليلا على فرضهم وان صادفتهم مع ذلك مشكلات لم يهتدوا فيها الى حل . فالفتاة المعذبة تسأل حبيبها وراعيها الذي يكبرها بأعوام كثيرة ويربطها به حب عجيب : هل تعرف البيت ؟ ثم لا تزال تصف هذا البيت حتى يساورنا الشك في أن يكون بيتا كسائر البيوت التي نعرفها ! أن سطحه يستقر على أعمدة ، والردهة تلمع بالنور ، والمخدع يتألق . والتماثيل المرمرية واقفة هناك تنظر اليها وتسألها في اشفاق: ماذا فعلوا بك ، يا طفلتي المسكينة ؟ فاي بيت هذا الذي يتكلم فيه تماثيل المرمر ويضيء كل شيء ، وتسكن كل حركة كأنما يغمره هدوء الابد والخلود ؟ هل يمكن أن يكون بيتا يزوره الانسان ويلح على زيارته ؟ وماذا يفعل هناك وكل شيء يتألق بنور كأنه لم يخلق لعيون البشر ، وتغلفه أسرار لا يقوى عليها البشر ؟ وهذه التماثيل «المرمرية» ما الذي جعلها تقف هناك كأنها تنتظر الفتاة المسكينة ، لا لتضمها وترعاها وتتعهد شبابها ، بل لتسألها السؤال الاخير : ماذا فعلوا بك، يا طفلتي المسكينة ؟ هؤلاء الذين فعلوا بها ما فعلوا ، هؤلاء الذين ظلموها هذا الظلم الذي حرك حتى تماثيل المرمر ، أين هم وما شأنهم وهل يمكن أن ينتموا الى نفس العالم الذي تقف فيه التماثيل ؟

« يقف ، ويسكن ، ويستقر » ، لمعان وتألق ونور يغمر كل مكان ، تماثيل واقفة صامتة تنظر في اشفاق وتسأل عيونها عن الظلم الذي لحق بالطفلة التعيسة ، أين يكون هذا كله ؟ في أي بيت ؟ في أي مكان ؟ أم تراه رمز وراء كل البيوت وكل الامكنة ؟

على ان الشراح حين انتقلوا الى المقطوعة الثالثة والاخيرة من القصيدة واجهتهم الحيرة ، وراحوا يلفون حولها ويدورون ، محاولين أن يفسروها في نسيج تفسيرهم لها كتعبير عن الشوق الايطالي في نفس الشاعر والفتاة ، وأغلب الظن انهم كانوا يعترفون بانه تفسير لا يكفي ، وان الابيات الخمسة الاخيرة أصابتهم برعشة غريبة لا يمكن ان تأتي من ايطاليا ولا من غيرها من البلاد . فبعد ان وصفت الفتاة الطبيعة والبيت الذي تقصده ، عادت الى الشيء الذي كان ينبغي أن تبدأ به . لقد رجعت الى وصف الطريق المؤدي اليها . ولكن يا له من طريق ! أنها تسأل « الاب » (لاحظ انها لا تقول يا أبي بل تقول أيها الاب !) عن الجبل الذي يلتف دربه في السحاب ، وتتحدث عن الدواب التي تبحث عن طريقها في الضباب ، وبعد أن تصف الجبل وطريق الجبل تهبط فجأة الى الكهوف التي يسكنها أبناء التنين العجائز الذين ينفثون النيران من أفواههم البشعة ، وينشرون الرعب في كل مكان حولهم ، ثم تنتقل الى الصخور التي تهوي ومن فوقها الطوفان ، لترسم صورة من الانهيار الكوني أو ما يسميه الغربيون « بالايوكاليبسه » على نحو ما صورها سفر أيوب وجاءت في رؤيا يوحنا . ومع ان الجبل يلفه السحاب ، والطريق اليه غارق في الضباب ، ومع أن أبناء التنين يسكنون في كهوفه ويتربصون بكل عابر سبيل ، والصخر يهوي ومن فوقه الطوفان ، وكل شيء يثير الخوف والارتعاش ، ويبتعد عن النور والتألق والسكون الذي رأيناه في المقطوعة السابقة ـ مع هذا كله فان الطفلة لا تزال تهتف باندفاع : الى هناك ! الى هناك ! انها تقول في يأس واستسلام ان طريقنا ـ لا طريقها هي وحدها ـ يمضي الى هناك . هو القدر الذي لا مهرب منه ولا نجاة ، فلنذهب اذن ولا نتردد ! أيكون هذا الجبل بكل ما فيه من الصور المفزعة هو الطريق الى البلد الذي تزدهر فيه ثمار البرتقال والليمون وتهب الريح ناعمة من السماء ؟ أم يكون هو الطريق الى

البيت الساكن الذي تلمع ردهته و « يتألق » بالنور مخدعه ؟ وكيف تكون كل هذه الصور المفزعة طريقا وهي نفسها نهاية وهاوية ؟ أم تراها تكون المستقر الاخير بعد أن ترى البلد الذي حنت اليه ، وتطوف بالبيت الذي وجدت من ينتظرها فيه ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا جاء ترتيب هذه المقطوعة في النهاية وكان مكانها في البداية ؟ أيكون خطأ وقع فيه الشاعر أم هو الذي قصد اليه ؟

أسئلة كثيرة توشك ألا تنتهي ! لعل السر الذي يلف القصيدة من أولها لاخرها هو الذي جعلنا نقع فيها بغير أصل في الجواب ، أو لعل شخصية الفتاة التي تنشدها والمصير التعس الذي أحاط بمولدها وموتها هو الذي يجعل كل كلام يقال عنها أشبه بالرعشة والارتجاف .

لنحاول اذن أن نفهم القصيدة من « داخلها » فهي الطريقة التي يبدو انها أسلم من كل طريقة سواها في فهم الشعر والاعمال الفنية على وجه الاجمال . ولنبتعد ما استطعنا عن كل التفسيرات التي تنذرع بحياة الشاعر والفنان أو تبحث عن مبرراتها في ظروفه النفسية او الاجتماعية ، فقد تكون لهذه التفسيرات فائدتها المحققة في القاء الضوء على النص الادبي ، ولكن لا ينبغي أن تكون هي الاساس ونقطة الانطلاق .

القصيدة أغنية تأتي على لسان انسان ، وهذا الانسان شخصية في رواية أو خيط في شبكة كبيرة من الاحداث والوقائع والشخصيات. فكيف نستطيع ان نفهم الاغنية قبل أن نعرف من هو المغني ؟ صحيح ان الرواية ربما كانت مجهولة عند معظم القراء ، ولكن هذا لا يجوز أن يمنعنا من الحديث عن هذه الطفلة المسكينة (منيون) التي وقف بها النضج بين براءة الطفولة ، وأشواق المراهقة ، وراحت تهب عليها من وراء الزمان والمكان رياح تحمل معها رعشة السر والعذاب .

.....

نحن نقابل القصيدة في بداية الكتاب الثالث من رواية جوته « فيلهلم ميستر ـ سنوات التعلم » . اننا نحس لاول وهلة كأنها نسمة من عالم غريب ، مستقلة بذاتها عن أحداث الرواية ووقائعها ، غير مندمجة فيها كغيرها من القصائد والاغنيات التي تغنيها هي نفسها أو تنشدها شخصية أخرى هي عازف القيثار العجوز . ان بطل الرواية فيلهلم ـ هذا الشاب الذي يتعلم ويبحث عن نفسه في عوالم المسرح والنبلاء والطبقة الوسطى وتسجل حياته قصة الثقافة والتربية في القرن الثامن عشر ـ يسمع موسيقى أمام بابه . ويميز صوت منيون التي تغني فيفتح لها الباب . « ودخلت الطفلة وأنشدت الاغنية التي سجلناها الان » . أعجبه اللحن والتعبير ، وان لم يستطع ان يسمع كلمات الاغنية . وطلب منها أن تعيد عليه المقطوعات وتشرحها له ، ثم دونها وترجمها الى لغته . ولكن ترجمته ، كما يقول الكاتب ، لم تستطع ان تحاكي الاصل الا من بعيد ، بل ان براءة التعبير قد اختفت منها ، حين ربط بين اجزائها وجعل من لغتها العسيرة شيئا منسقا متوافقا . لم تستطع الترجمة اذن ان تعكس سحر اللحن الاصيل . كانت الطفلة تبدأ كل بيت باحتفال وروعة ، كأنها تريد ان تلفت الانتباه الى شيء فريد في بابه ، او تنقل خبرا له أهمية . وفي السطر الثالث زاد الصوت خفوتا وحزنا ، وأخذت تنطق سؤالها : « هل تعرفه حقا » بنغمة غامضة متأنية ، وتعبر بقولها « الى هناك ! الى هناك ! » عن شوق طاغ ، كما تقول « دعنا نذهب » فتخرج من فمها تارة بتوسلة ملحة ، وتارة أخرى مستحثة واعدة . وعندما انتهت من انشاد أغنيتها للمرة الثانية سكتت لحظة ، ونظرت الى فيلهلم نظرة جادة وسألته : « هل تعرف البلد ؟ » أجاب فيلهلم : « لا بد انه ايطاليا . من أين جئت بهذه الاغنية الجميلة ؟ » . قالت منيون بصوت له دلالته ، وبغير أن تنفي أو تؤكد ما قالته : « ايطاليا ! ان ذهبت يوما الى هناك ، فخذني معك ، انني أتجمد هنا من البرد » . وعاد فيلهلم يسأل ، وكأنه ظفر منها بالجواب الصحيح : « هل كنت هناك من قبل ، يا صغيرتي العزيزة ؟ » . لكن الطفلة ظلت صامتة ، ولم يستطع ان يستخرج من بين شفتيها كلمة واحدة .

هل رأت « منيون » هذا البلد من قبل ؟ وان صح ان ايطاليا هي بلد الجنوب التي تحن اليها فهل نشأت فيها ورأت عيناها أزهار الليمون وشجر البرتقال الذهبي ؟ ان هذه الطفلة التي تقترب من سن الفتاة ولا تزال تحتفظ ببراءة الطفولة وأسرارها ، هذا الانسان الغريب الذي تكشف حبه لفيلهلم في مناسبات عديدة ، فلم يدر هو هل حب الفتاة حب الابنة لابيها وراعيها أم حب الفتاة لحبيبها ، لا بد أن تكون لها قصة ، وقصتها نعرفها على لسان الطبيب الذي يزورها في مرضها الاخير ، ويذكره (في الكتاب الثامن من الرواية) بصور من تلك الاغنية القديمة التي جاء في امرها (في الكتاب الثالث منها) . لقد خرج الطبيب من عندها وانفرد بفيلهلم ليقول له ان هذه الطفلة تطوي صدرها على سر لا تريد او لا تستطيع أن تبوح به. ان طبيعة الطفلة الطيبة تكمن في شوقها العميق لرؤية وطنها ، وشوقها الى فيلهلم ، وهو الشيء الارضي الوحيد فيها . كلاهما يمتد بها الى بعد لا نهاية له . لعلها نشأت في ضواحي ميلانو ، كما يقول الطبيب ، واختطفتها جماعة من راقصي الحبال وهي لا تزال طفلة . غير ان المرء لا يستطيع ان يعرف منها اكثر من ذلك ، لانها كانت لا تزال أصغر من ان تدرك اسم المكان الذي ولدت فيه واختطفت منه ، او لانها أقسمت بينها وبين نفسها ألا تكشف لانسان حتى عن اصلها ونشأتها . ان الذين عثروا عليها تائهة وراحت تصف لهم بلدها ومسكنها وتتوسل اليهم بالدموع ان يعيدوها الى وطنها أخذوها معهم واعتقدوا انها لن تستطيع أن تعود اليه وحدها . أطبق على المسكينة يأس فظيع ، وخيل اليها ان العذراء المقدسة تجلت لها ووعدتها ان ترعاها وتتولى أمرها . ومن تلك الليلة أقسمت قسما مقدسا ألا تثق في المستقبل بأحد ولا تروي قصتها لاحد بل تحيا وتموت على الامل في معونة الله . لم يعرف الطبيب ذلك كله من الطفلة بل جمعه من فلتات لسانها ، وأضغاث أحلامها ، وغرائب اعترافاتها وأغنياتها ، وتشنجات قلبها المسكين الذي توشك أشواقه المعتمة أن توقف ضرباته.

ان حفلة تقيمها راعيتها « ناتاليه » للفتيات اللاتي تتعهدهن بالتربية قد تلقي الضوء على طبيعتها الحافلة بالاسرار . فقد سمعت هذه الفتيات من أفواه أبناء الفلاحين ان الملائكة والسيد المسيح يظهرون في بعض الاحيان بأشخاصهم للاطفال فيكافئونهم او ينزلون بهم العقاب . ورأت ناتاليه أن تحقق لهم هذه الرؤية واختارت « منيون » لتقوم بدور الملاك . ولبست الطفلة ثوبا ابيض خفيفا ، ولفت حول صدرها حزاما ذهبيا ، ووضعت في شعرها المنسدل جوهرة ، وعلى كتفيها جناحين ذهبيين . وما أن تجلت الطفلة حتى هتف الاطفال : « انها منيون » ! ومنعتهم الرهبة من الاقتراب منها . قالت الطفلة وهي تمد ذراعها بسلة في يدها : « ها هي هداياكم » . وتجمع الاطفال من حولها ، يتأملونها ويسألونها . قال طفل : « هل أنت ملاك ؟ » أجابت منيون : « تمنيت لو أكون » . سأل طفل اخر : « لماذا تحملين في يدك زنبقة ؟ » ردت منيون : « ليت قلبي كان نقيا وصريحا مثلها ، اذن لاصبحت سعيدة » . سأل طفل ثالث : « ما هذه الاجنحة ؟ دعينا نراها ! » فأجابت منيون : « انها تمثل أجنحة أجمل ، لم تفرد بعد » . وهكذا راحت تجيب بالرمز العميق على كل سؤال بريء . وبعد ان ردت على كل سؤال ، وأرضت كل تطلع ، وبدأت الدهشة تختفي من العيون الصغيرة ، طلب اليها الحاضرون أن تنضو عنها ملابسها العجيبة ، فقاومت بكل ما تستطيع ، وأمسكت معزفها وجلست على مكان مرتفع وراحت تنشد هذه الاغنية ، في صوت ساحر رقيق :

دعوني أظهر ، حتى أكون ،
لا تنزعوا عني الثوب الابيض !
أنا أمضي مسرعة من الارض الجميلة

لاهبط في ذلك البيت المكين

• • •

هنالك أرقد لحظة قصيرة ،
ثم تنفتح العين على المشهد الجميل ،
هنالك أترك الغلالة الصافية ،
وأدع ورائي الحزام والاكليل

• • •

وتلك الاشكال السماوية
لا تسأل عن رجل ولا امرأة ،
ولا الملابس ولا التجاعيد
تحيط بالجسد المنير

• • •

حياتي عشتها حقا ، بلا هم ولا عناء
لكنني حملت من الالم العميق ما يكفيني
الحزن جعلني أشيخ قبل الاوان ،
فأعيدوا الي خلود الشباب !

وصممت راعيتها « ناتاليه » أن تترك لها الثوب وتعطيها ثيابا اخرى تسير فيها كما تسير النساء ، وتعبر فيها عن جانب خفي من طبيعتها . فها هي الان لا تجري ولا تقفز كما كانت تفعل من قبل ، بل تدفعها نزعة غامضة الى التنزه فوق ذرى الجبال ، والسير على اسطح البيوت ، والانتقال من شجرة الى شجرة . ولعلها في أيامها الاخيرة كانت تحسد الطيور التي اهتدت الى مسكنها الاخير فراحت تبني أعشاشها بين الاغصان في نظام واطمئنان !

ولكن ما هي اذن قصتها ؟ ما حكاية الاعمدة والتماثيل التي علقت صورها في ذاكرتها ، والتماثيل المرمرية التي تنظر اليها وتسألها : ماذا فعلوا بك يا طفلتي المسكينة ؟ اننا نعرف في ختام الرواية كيف كانت نهايتها . كان فيلهلم بطل الرواية الذي يبحث عن نفسه مع ناتاليه يتفرجان على قاعة الماضي التي دفن فيها عمها وملأها بالتماثيل والصور والتوابيت العجيبة . وكانا يوشكان ان يغادرا القاعة حين اقبل فلباس الصغير (ابن فيلهلم) ومنيون وهما يتسابقان لابلاغ النبأ المفرح الفاجع : فقد وصلت « تيريزة » التي اراد فيلهلم أن يتزوجها ، والتي أقبلت لتكون عروسه وحبيبته . القت منيون بنفسها على صدر راعيتها ناتاليه وقلبها المريض يدق في عنف ، وكأنه شاء ان يعلن للمرة الاخيرة عن حبه الغريب لفيلهلم وغيرته من العروس الموعودة . قالت لها ناتاليه : « يا صغيرتي الشريرة ، ألم تحرم عليك كل حركة عنيفة ؟ أنظري كيف يدق قلبك . » أجابت منيون وهي تتنهد : « دعيه ينكسر . فقد طالت دقاته » . ولم تكد العروس تعانق فيلهلم وتهتف به : « يا صديقي وحبيبي وزوجي ، انني لك الى الابد » ولم يكد فيلهلم يقول لها « يا عروس » حتى رفعت منيون يدها اليسرى الى قلبها ، ثم مدت ذراعها اليمنى وهي ترتجف وما هي الا لحظة حتى صرخت وسقطت ميتة أمام قدمي ناتاليه : كان الرعب هائلا ، لم تلاحظ اية حركة من القلب او النبض . حملها فيلهلم على ذراعه ومضى بها الى اعلى ، وتعلق الجسد الذي يرتعش رعشاته الاخيرة فوق كتفيه . لم يستطع الطبيب ان يحمل لهم العزاء ، وعجز الطب عن رد الحياة الى الكائن المحبوب . ويلتئم الجمع بعد أن دفن منيون في « قاعة الماضي » ليسمعوا حكايتها من مذكرات المركيز كما يقرأها عليهم القسيس التقي ، فالمركيز يصف اباه الجاد ، الذي راح يفرض على نفسه وعلى البيئة المحيطة به قوانين صارمة لا ترحم ؟ وكان للاب ابناء ثلاثة تعهدهم بالتربية القاسية ، لكي يشرف الاول على املاك واسعة ، ويصبح الثاني (وهو المركيز) رجلا من رجال الدين ، والثالث (وهو اصغرهم) جنديا . ولكن الاخير كان يبدو عليه الميل الى الهدوء والحياة الحالمة ، والاتجاه الى العلوم والموسيقى والشعر . وافلح الاخوان الاخيران بعد صراع عنيف في اقناع الاب بتبديل الحياة المقبلة التي رسمها لهما . ورضي الاب وان لم يقتنع ابدا بصواب هذا الرأي ، وعاش ايامه الاخيرة منعزلا عن المجتمع ، لا يكاد يخالط احدا غير صديق قديم خدم فترة في الحرب وفقد زوجته هناك ، وعاد مع ابنته التي كانت تبلغ العاشرة من عمرها ليعيش في هدوء في ضيعته ، كان يحضر لزيارة ابيه في ايام معلومة من كل اسبوع ، ويحضر معه ابنته البالغة من العمر عشر سنوات ، التي كانت تزداد مع الايام روعة وجمالا . ودخل الاخ الاصغر اوغسطين الدير ، واستسلم بكليته لحياة خشنة كانت ترفعه أحيانا الى سماء المتعة والوجد، وتخفضه احيانا اخرى الى حضيض اليأس والملل . وتحسنت حالته شيئا فشيئا بعد وفاة ابيه ، ولكنه راح يطلب من اخويه ان يخلصاه من العهد المقدس الذي قطعه للكنيسة ، وان يوافقا على زواجه من جارتهم « سبيراتا » التي كان يبدو انه وقع في حبها . وحين الح الاخوان في الامر على قسيس الاسرة وكاشفاه برغبة أخيهما ، تردد كثيرا ثم اطلعهما على السر العجيب . لقد كانت اسبيرانا شقيقتهما من الاب والام . فقد احس الاب العجوز في اواخر حياته بأن الطبيعة قد تغلبت عليه ، وانه يوشك ان يرزق بطفل ، في وقت يستبعد عليه ذلك وعلى زوجته . وكان الناس لا يزالون يتندرون بحالة متشابهة حدثت في المنطقة ، فاخفى الاب النبأ عن الجميع . ووضعت أمهم سرا ، وارسلت الطفلة الى الريف ، وتعهد الصديق بأن يعلن عن أبوته لها ، كما تعهد القسيس بأن يكتم السر ، فلا يبوح به الا اذا اقتضت الضرورة القاسية . وحاول الاخوان ان يقنعا شقيقهما بالحقيقة ، ولكن بلا فائدة ، كان في كل مرة يقول لهما والغضب يتطاير من عينيه : « وفرا خرافاتكما الكاذبة للاطفال والبلهاء . لن تنزعوا سبيراتا من قلبي ، فهي لي . انها ليست شقيقتي بل زوجتي ! » كان يروي لها كيف اعادته سبيراتا الى الحياة وأبرأته من الوحدة والانعزال ، وكيف وهب نفسه بكليته لهذه الفتاة التي لم يعرف قبلها احدا . واصاب الاخوين فزع رهيب حين فاجأهما ذات يوم بأن سبيراتا قد حملت منه . وفعل القسيس كل ما يستطيع ، ولكن حب شقيقتهما كان اشد قدسية في عينيه من كل ما هو مقدس ، والابوة التي حكمت بها الطبيعة كانت اسمى من كل القوانين التي وضعتها الاديان والاخلاق . ان الطبيعة قد عوضته اخيرا عن حيرته وبأسه ، وانعمت عليه بالحب وهو اسمى عطاياها ، ومحال ان يفرط في هذه العطية ، وان من قاسى ما قاساه من العذاب يملك الحق في ان يكون حرا . لقد جمع الحب بينهما فلن يفرق بينهما الا الموت .

وحاول الاخوان ان يقنعاه ، فأصر على موقفه . واشار عليهما القسيس ان يحبساه في البيت ، ولكنه استطاع ان يفلت منه . واراد ان يستقل مركبا يقله الى الشاطيء الاخر حيث تعيش زوجته وشقيقته ، ولكن الملاحين الذين اسر اليهم القسيس بالخبر اوصلوه الى الدير . واجتمعت عليه هموم الندم والتوبة والشك فنام في القارب . ولم يعد اليه هدوءه حتى سمع باب الدير يغلق وراءه .

اما الام فقد اخفى الجميع عنها النبأ . وتعهدها احد اباء الكنيسة بالرعاية . وراح ينقل اليها أخبار الحبيب الذي لم يره، وينصحها بأن تهتم بالطفل وتضع ثقتها في الله . وبدأ يطلعها على خطيئتها شيئا فشيئا ، ويهيىء روحها المتدينة للانابة والتوبة .

ونمت الطفلة وتفتحت طبيعتها الغريبة مع الايام . تعلمت المشي والغناء بأسرع مما كان يقدر لطفلة في مثل سنها ، بل انها اتقنت العزف على القيثار من غير ان يعلمها احد . ولكنها كانت تكشف عن عجزها عن التعبير ، الذي لم يكن راجعا الى نقص في اعضاء النطق بقدر ما كان راجعا الى عجز في قدرتها على التفكير . وكانت الام تراها وهي تلعب وتنمو امام عينيها ، ويعذبها الصراع الذي يدور في نفسها بين فرحة الام بابنتها وبشاعة الجريمة التي كانت السبب في وجودها.

واخذوا الطفلة منها لتعيش مع قوم يسكنون عند البحيرة . ولاحظ الناس ولعها بتسلق الجبال وحبها للسير فوق القمم وتقليد راقصي الحبال الذين كانوا يفدون كثيرا الى تلك المنطقة . كانت تقفز وتجري ، تغيب عن البيت وتتيه بعيدا ، ولكنها تعود دائما . هناك يجدونها جالسة

تحت اعمدة المدخل الرئيسي لاحد البيوت الريفيـــة المجاورة ، تجلس لحظات على الدرج للستريح ثم تنهض لتسير في القاعة الكبيرة وتنظـر الى تماثيل المرمر قبل ان تعود الى البيت . ولكنها في يوم مـــن الايام ذهبت ولم تعد ، ووجدوا قبعتها طافية على سطح الماء ، غير بعيد مـن الموضع الذي ينحدر فيه احد الانهار الى البحيرة . ورجح الناس ان تكون قد سقطت بين الصخور وهي تتسلقها على عادتها ، ولكنهم لـــم يعثروا لجسدها على اثر .

وسمعت الام بوفاة ابنتها ، فتلقت النبأ في هدوء وصفاء ، وربمـا اظهر شكرها لله الذي استرد وديعته المسكينة ، واراحها بكارثة موتهـا من كارثة اكبر في حياتها . واعتقدت أن الطفلة قـد كفرت عن خطيئتها وخطيئة ابويها ، وان اللعنة التي نزلت عليها قد رفعها المـــوت عنها . وانتشرت الخرافات عن البحيرة التي تطلب بين حين وحين ضحية ، ولا تطيق الجثث الميتة ، بل تقذفها الى الشاطىء حتى اخر عظمة فيهـــا ، ومنها قصة الام التي غرق طفلها في الماء ، فراحت تدعو الله والقديسين ان لا يحرموها من عظامها ، وتتحول على الشطئان لتجمع العظام التـي يلفظها الموج . وقذفت العاصفة بالجمجمة ، ثم لفظت الجذع ، ولمـــا اجتمعت العظام لفتها في ثوب وذهبت بها الى الكنيسة ، ولم تكد تدخل من بابها حتى احست بان الثوب ينتفخ ، ولم تكـــد تضعه على درجات المذبح حتى بدأ الطفل يصرخ ويخرج من الثوب كاملا ، ولم ينقص فيـه شيء سوى عظمة صغيرة في الاصبع الاصغر لليد اليمنى ، لـم تسترح حتى عثرت عليه ، ودفنته في الكنيسة .

تأثرت الام المسكينة بهذه الحكايات ، فلم تنقطع عن التجول علـى الشاطىء املا في العثور على عظام ابنتها . لم يكن احد يجد في نفسه الجرأة ليصارحها بأن العظام التي تجمعها ليست الا عظـــام حيوانات واسماك ميتة ، فقد كانت تعيش على أمل ان تحمل طفلتها ذات يوم الى كنيسة القديس بطرس في روما ، لتضع الطفلة امام البابا وبقية الاباء ، ليعلنوا بين صيحات الجماهير ان خطيئة ابيها قد غفرت الى الابـــد . وكان الناس يرونها كل يوم وهي عائدة من الشاطىء ، تضم يديها فـــي حنان على العظام الصغيرة ، فيقفون ليشبكوا اذرعهم علـــى صدورهم ويسرع الاطفال الى تقبيل يديها وطرف ردائها .

واقترح الطبيب ان يضعوا الى جانب العظام التي دابت على جمعها هيكلا عظميا صغيرا ، لعله أن يعينها على الشفاء ، أو يردها عن البحث عن ابنتها ويضاعف املها في السفر الى روما . وكان ما توقعه الطبيب ، فقد كانت فرحة الام تزداد مع كل قطعة جديدة يقدمونها اليها ، حتـــى اكتمل الهيكل العظمي الصغير ، فعكفت عليه تشبكه بخيوط الحريـر ، كما هي العادة المتبعة مع عظام القديس . وفي يوم من الايام جاء الطبيب لزيارتها ، وارادت السيدة العجوزة التي ترعاها ان تريـــه كيف يمضي وقتها فأخرجت الهيكل من صندوقه لتعرضه عليه . كانت الام في تلك الاثناء نائمة . وحين استيقظت ذهبت الى الصندوق ففتحته وخـــرت على ركبتيها راكعة وهتفت في فرح : « نعم ! انه حق ! لم يكن حلما . انه حق ! افرحوا معي يا اصحابي ! لقد رأيت الطفلة الجميلة مـــرة اخرى . وقفت امامي والقت القناع عن وجهها الساطع ، وغمـر نورها الحجرة . وتجلت كالملائكة ، وارتفعت عن الارض ، ولم تستطع ان تمـــد يدها على الرغم من محاولتها . ولكنها نادت علي ودلتني على الطريق ، سأتبعها على الفور يا اصحابي ، وسيفرح قلبي . حزني تلاشى ورؤيـة طفلتي التي بعثت حية جعلني اجس بطعم السعادة فـــي السماء . » ومن ذلك اليوم انصرفت بكيانها عن كل ما يثقل بالارض ، واخذت روحها تتحرر شيئا فشيئا من قيود الجسد ، حتى وجدوها في النهاية شاحبة الوجه ، ولم تفتح عينيها بعد ذلك ابدا ، فقد اصابتها الحالة التـــي نسميها بالموت .

اما اخوها اوغسطين فقد لبث مقيما في الدير . منـــع الرهبان اخويه من زيارته ، فكانا يذهبان للاطمئنان عليه من بعيد وهو يسير فـــي

ـ التتمة على الصفحة ٥٧ ـ

الطوفان

الفارس مات.
تترد عبر الشارع في كل الانحاء الكلمات.
وتموج على الارصفة الانات
أنى نذهب في يوم الحشر ؟
ولقد ضاقت دنيانا بالاحلام ،
وما عدنا ننتظر الفجر !!

●

يا حامل ألوية النصر !
يا حامي العلم المعلم في هذا الزمن المتكور في زاوية القبر!
خذ أيدينا واصعد ،
فلعل هواء الارض
ينعشنا ،
يمنحنا القدرة ان حاصرنا الطوفان على الركض !

●

الشارة ما زالت منتصبة
ما زالت ، لكن فوق الكتف وحول الساعد
ما زالت .. لكن كالكرة بسفح الجبل ،
تبادلها الهابط والصاعد !

●

أنى نذهب ؟
دعنا نعبث بتراب القبر ، ونرسم فيه الاحرف ،
ونقطعها .. ونوصلها
دعنا نتلذذ بعض الايام بأكل الاسماك ولوك الطحلب
دعنا نبقى حيث تركنا !!
أنى نذهب ؟ أنى نذهب ؟

دمشق

عبد الرحمن غنيم

هل تعرف البلد البعيد ؟

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٧ ـ

حديقة الدير او ممراته . وكانا يسمعان انه دائم القلق ، لا يستريح لحظة الا اذا جلس ليعزف او يغني على قيثارته ، وانه يرى في الليل رؤيا تعذبه وتقتل نومه : يرى غلاما جميلا يقف الى جوار فراشه وهو يهدده بسكين لامع في يده . وتعاوده الرؤيا في النهار وهو يسير في فناء الدير فلا يدري وسيلة للهروب منها الا بالمزيد من القلق والعذاب. وكم كان منظره يؤثر في القلب وهم يرونه واقفا في نافذة زنزانته ينظر الى ما وراء البحيرة . ومع أن الجميع أخفوا عنه نبأ وفاة زوجته وشقيقته وكيف اصبحت قديسة يحج اليها الشعب ويتبرك بها ، فان احدا لا يدري كيف عرف الخبر ، ولا كيف استطاع ان ينفذ خطة الهرب من الدير في دهاء مذهل . وفي الليل ذهب الى حيث رقدت حبيبته ، لم يكن هناك غير بعض المتبتلين حول تابوتها ، وصديقتها العجوز عند رأسها . نظر الى الجثمان لحظة ثم مد يده وتناول يدها . ولما افزعته برودتها تركها تسقط من يده ، وتلفت حوله قلقا قبل أن يقول للعجوز : « لن استطيع ان ابقى معها الان ، فأمامي سفر طويل ، ولكنني ، سأعود في الوقت المناسب . فأبلغيها ذلك حين تصحو ! »

***

هل تعرف البلد الذي تزدهر فيه اشجار الليمون ؟
في الشجر المعتم تتوهج ثمار البرتقال الذكية ؟

قلنا من قبل اننا نفاجأ بهذه الابيات في مطلع الكتاب الثالث من «فيلهلم ميستر» . انها تبدو كصوت غريب على عالم الرواية الواقعي ، فلا هو يجد مكانه في سياق النص كسائر الاشعار ، ولا هو ينمو من موقف معين فيها . وحين تنتهي من قراءتها لا تدري من الذي يغنيها ، حتى اذا عرفنا اخيرا انها الطفلة المسكينة منيون ، عاودتنا الحيرة فلا ندري ماذا تغني ولا اي بلد تقصد . فها هو ذا التتابع الزمني الذي تجري فيه الاحداث قد انقطع ، وها هي ذي قوة غريبة قد نفذت الى دائرة الحياة اليومية للابطال ، قوة تخلع الزمن ـ هذه الصورة التي لا يكون بغيرها فكر ولا وجود ـ من أساسه ، وترفض أن تنضوي تحت قوانين العالم المعقول . وهي لا تخرج بنا عن الزمان فحسب ، بل تقصينا كذلك عن كل بعد مكاني حين تسأل عن مكان لا تعرفه ولا تسميه، مكان لا السائل يدريه ولا المسئول . شيء كأنه يأتي من وراء العالم يحمل معه رعشة السر وغموض الارواح . صحيح أن الكاتب يفيض في وصف الاغنية فيقول انها تصدر من اعماق القلب في صوت مؤثر بالغ التعبير ، فائق الروعة والسحر . ومع ذلك فهو بهذا الوصف لا يزيدنا الا حيرة ، والجهد الذي يبذله ليدخلها في نسيج الواقع لا يستطيع ان يسد الهوة التي اتضحت فجأة في ارض الواقع . ثم أن الاغنية التي تقرأها ليست هي نفسها اغنية منيون ، بل ترجمة المانية لها ، لا تستطيع ان تحاكي الاصل من بعيد » . صحيح اننا نعلم من قراءتنا للرواية ان شخصية منيون خليط من دماء فرنسية وايطالية والمانية كما نعرف عن طفولتها انها كانت تعاني صعوبة في الكلام، لعله ان يكون نتيجة لاضطراب الفكر اكثر من ان يكون خللا في اعضاء الكلام .

ومع ذلك فان الكاتب يؤكد لنا ان الاغنية مترجمة عن « لغة غريبة» اية لغة هذه لا يمكن ان تكون هي اللغة الايطالية ، والا لكان الحوار الذي يأتي بعدها بين فيلهلم ومنيون عن البلد الذي تقصده لا داعي له ، خاصة وان الكاتب يرفض ان يحدده باي بلد معين ، ولو كان هذا البلد هو ايطاليا . اذن فلا بد من الجواب الوحيد عن السؤال السابق ، مهما بدت غرابة هذا الجواب . ان الاغنية لا تتكلم باية لغة على الاطلاق . والمعاني التي تحاول ان تنقلها الينا لا تتجسد في لغة ، ولو لم يكن الامر كذلك لما قال الكاتب انها ممزقة لا ترابط فيها وان ترجمة فيلهلم لها هي التي جعلتها ما هي عليه ، وادخلت عليها التناسق والالتئام .

وحتى هذه اللغة الجديدة التي ظهرت فيها ليست الا انعكاسا باهتا لها ، والرداء الذي ظهرت به ليس الا صورة شاحبة لمعنى غير ارضي يفلت من كل تحديد . وتصبح القصيدة بذلك قطعة مما يمكن ان نسميه الشعر الاصلي الذي تحاول اللغة عبثا ان تلتقطه في الكلمات . تصبح ، ان جاز التعبير ، جوهرا او مثالا افلاطونيا « تعوزه » المادة . وليس من قبيل المصادفة أن يقف المؤلف عند اللحن فيقول أن سحره لا يعادله شيء ، وان يتحير القارىء امامها فلا يفهم كلماتها ولا يدري أي بلد تقصده . وليس أسهل علينا من ان نقول ان البلد هي ايطاليا ، وان الاغنية هي هذا التحديد ، فليست رؤيا مكان ، لانها تخرج من حدود عالم المكان والزمان ، وليست رؤيا « بالكلمات » لانها تنقلنا الى مملكة من الالحان الخطرة التي لا تعرف الكلمات ، الى منطقة الاسرار التي تخلو من « الترابط » والتلاؤم .

منيون تقول : « الى هناك ! الى هناك ! » ثلاث مرات تلح على حبيبها وسيدها وراعيها ان يمضي بها الى « هناك » . وهناك هذه لابد ان تكون مكانا يندفع اليك شوقها وتوسلاتها . فهو مرة « بلد » واخرى « بيت » ، وثالثة جبل في ثلاث مقطوعات متتالية . هل تقول انها تعبر عن شوقها الى الجنوب ، الى ايطاليا بلد الدفء والنور ؟ قد يصح هذا على المقطوعتين الاوليين . ولكن ما بال المقطوعة الاخيرة تنتهي بنا حيث كان ينبغي ان نبدأ ؟ وكيف تصف الطريق المفزع ـ لعله ممر في جبال الالب ، تزدحم فيه ذكريات مخيفة عن مغامرات الطفلة بين الصخور وفي اعالي الجبل وعند الجدول المتدفق ـ بعد ان انتهت من وصف البلد والبيت الذي تقصده ؟ هذه الرؤى القلقة التي تمتلىء بها المقطوعة الاخيرة من الاغنية من جبل يلفه السحاب والضباب ، وكهوف تسكنها سلالة التنين ، وصخور تهوى ومن فوقها الطوفان ، لا يمكن أن تنسجم مع الشوق الى الجنوب ، ولا يمكن ان يكون لها مكان في ايطاليا . لا مفر اذن من تفسير هذه المقطوعة الاخيرة من داخل القصيدة لا من خارجها بغير ان نقحمها قسرا في حياة الشاعر او ظروفه النفسية ! ولا بد بالتالي أن تسقط عبارة الحنين الى ايطاليا من حسابنا .

لا شك ان حنين هذا الذي يرن علينا من الاغنية ، تنطق به كلماتها كما ينطق به لحنها لكنه حنين من نوع خطير ومخيف ، فالهدف الاخير من الرحلة الذي تلح عليه منيون ليس بلدا ولا بيتا ، ولكنه شيء وراء العالم ، شيء لم تخط فيه قدم ولم تره عين انسان انها تتحدث عن جبل يسير دربه في السحاب ، وهو في حقيقته درب يسير الى اللامتناهي ، درب لم يخلق لتسير عليه الاقدام . والطريق معتم يخترق الضباب ، يزدحم بكائنات من عالم خرافي ، فهنا التنين ، وحش ما قبل التاريخ او وحش نهاية التاريخ وعلامة انقضائه . وتكتمل صورة الانهيار الكوني حين تتحدث القصيدة عن الصخور التي تهوي ومن فوقها الطوفان .

ان منيون تتغنى هنا بهذا الطريق الجميل المخيف الى العدم ، الى الموت ، الى الابد الساكن الميت ، الذي اختفت منه الاجسام ، والاشكال وراحت السحب والضباب والطوفان يغرق كل ما هو ثابت ومرئي فيه . هو طريق يصعد الى اعلى حيث تتلاشى كل صورة عن المكان ، ولكنه سرعان ما يعود ليهبط فجأة الى الهاوية حيث تنحدر الصخور . ذلك ان عالم الابد ، او بالاحرى ما ليس بعالم ولا يوجد في عالم ، يستوي فيه الاعلى والادنى ، والقمة والقرار : اهبط اذن ، او استطيع ان اقول اصعد ، فالامر سواء .

الا يدور الزمان كذلك على نفسه ؟ الا تلتحم البداية بالنهاية ؟ والا فما هو المعنى الاصيل الذي ينبغي ان يفهمه من « انباء التنين العجافر »؟ أليست صورة للانهيار الكوني ، لليوم الاخير ؟ الا تنحل اجزاء الصورة الى العناصر الكونية الاولى ؟ الا تجتمع الارض (الجبل والصخر) والهواء (السحاب والضباب) . والماء (الطوفان) والنار (التنين رمز

للحيوان الذي ينفث النار في التصور الشعبي) في هذه الصورة المفزعة الاخيرة ؟

ومع ذلك فان منيون تلح على حبيبها وراعيها ان يحملها الى هناك الى موضوع وراء كل مكان وزمان ومن هنا تغير نداؤها الاخير عما كان في المقطوعتين ، السابقتين . كانت تقول له : الى هنا ! الى هنا !

أود أن أمضي معك يا حبيبي ، فهي تعرف البلد كما تعرف البيت ، غير انها تقول الان : الى هناك الى هناك ، آه أيها الاب ، دعنا نذهب ، لا تحدد مكانا ولا هدفا ، بل تترك الطريق مفتوحا بلا هدف محدد يصل اليه . وليس عجيبا بعد ذلك أن لا تخاطب السيد ولا الحبيب بل تقول أيها الاب ، فترمز بذلك للالوهية نفسها .

اذا فهمنا المقطوعة الاخيرة بهذا المعنى ، أمكن أن نفهم المقطوعتين السابقتين على ضوء هذا التفسير ، وأصبح من السهل أن نجعلها مرحلتين من مراحل الطريق الموصل الى راحة الابد أو سكون العدم . بذلك تصبح المقطوعات الثلاث صورا مختلفة لرؤيا ميتافيزيقية واحدة ، لا يمكن أن نستبعدها على شخصية « منيون » المفعمة بالاشواق والاسرار .

حقا ان المقطوعة الاولى ترسم لنا خلفية من الطبيعة الايطالية . ولكننا يجب أن لا نقف عند أشجار الليمون والمسك والغار أو عند ثمار البرتقال الذهبية بما هي أشجار وثمار . ذلك انها رمز للحياة نفسها . صحيح أن النباتات التي تصورها لنا هي نباتات تنمو في الجنوب ، ولكن الصورة ترسمها لنا في حالة السخاء العضوي الذي تتطور فيه حركة الحياة . ازهار الليمون هي النبات في مرحلة التفتح ، وثمار البرتقال الذهبية هي النبات في مرحلة النضوج . صباح ومساء يطويان رحلة النبات من الزهرة المتفتحة الى الثمرة الناضجة . حتى تتوج الصورة بأشجار المسك والغار ، والقارىء يعرف انهما رمز الحياة الابدية على اختلاف الشعوب والعصور ، فهي اشجار دائمة الخضرة ، تكشف فيها الطبيعة عن ظاهرة الثبات في التغير ، والتغير في الثبات التي طالما تحدث عنها جوته . فهي لذلك أولى الاشجار بأن توصف بالتحرر من قيود الزمن .

ومنيون لا تتغنى هنا بصورة من صور النبات ، ولكنها تذكرنا بحكاية الحياة والنماء ، هناك الصباح والمساء ، وهناك الاخضرار الدائم الى الابد والحياة التي تدور في دورة العود الابدي الذي لا ينتهي . ان الطفلة تسأل في احتفال ، كأنها تشير بأصابعها أو تلفت الانظار . ذلك لانها تتغنى بسر الحياة نفسها . وقد لا يخلو من معنى ان نتذكر كيف ان الشاعر في كتابته الثانية للقصيدة قد استبدل الشجر الاخضر بالشجر المعتم ، وشجرة المسك « المرحة » بشجرة المسك الساكنة ، ولعله أحس ان الظلام والسكون أنسب للتعبير عن دورة الحياة الخالدة وأكثر اتفاقا مع الثبات والنضوج .

فاذا انتقلنا الى المقطوعة الثانية وجدنا ان تيار الحياة قد توقف، وان الزمان الذي يتحرك فيه كل ما هو حي قد صار الى السكون . فالاغنية تدور الان في عالم المكان النقي الخالص ، الذي لا يتحرك فيه شيء اذ لا حركة بغير زمان . لقد تجمدت الحياة في صورة المكان المطلق فهنا البيت والاعمدة والقاعة والمخدع . كل شيء هنا ساكن وهادىء ومطمئن ، حتى الافعال تلاشت منها الحركة ! انها تلجأ الى أفعال مثل : يطمئن ويلمع ويتألق ويقف ، بعد أن كانت تلجأ في المقطوعة السابقة الى أفعال مثل تزدهر ، وتتوهج ، وتهب . والبيت الذي تصفه لا يمكن أن يكون بيتا مما يسكنه الاحياء ، انه بيت الاموات ، يمتلىء بتماثيل المرمر . ليس بيتا من بيوت البشر ، بل هو « البيت » على وجه الاطلاق ، كل شيء فيه نحت ومعمار ، كل شيء فيه فن . وهل يصنع الفن شيئا غير هذا ؟ أليس هو الذي يوقف تيار الحياة المتدفق « ليثبته » في لوحة أو قصيدة او تمثال ؟ وهل يكون عجيبا بعد ذلك أن يكون الفن قاسيا على الدوام ، لان قسوته تقيد المعنى في الكلمة ، وتأسر الفكرة في الحجر أو اللون ، والنغمة في الصوت ؟ هل قلت يقيد ؟ لا بل يقتل ويخنق الحياة في ما ليس فيه حياة . ومع ذلك ، وبالمقارنة ، يمتلىء العمل الفني بالحياة ، بعد ان يتجرد من الحس ويغني الفنان ! ولم يبعد أرسطو كثيرا حين قال ان الفن « ميمزس » (محاكاة) فليس الفن الحقيقة الحية والواقع المتدفق ، بل هو الحقيقة المتمثلة ، والواقع المتصور الذي نشاهده وننفعل به ثم نثبته (أو قل نقتله !) في كلمة او حجر أو لون ! ومع ذلك فلا خلاص الا بالفن ، أو لنقل مع شوبنهاور أن الفن هو السبيل الوحيد الى الخلاص من وحش الزمان المجتر ، وهو الحالة السعيدة التي تقف فيها الحياة لتهدأ وتطمئن بعد طول صراع .

ولذلك تسأل تماثيل المرمر طفلتنا المسكينة بعد أن ختمت رحلة العذاب وبلغت بلد الضباب : ماذا فعلوا بك ، يا طفلتي المسكينة ؟ فالفن لا يسأل الان على لسان التماثيل المرمرية على الحياة التي لا تتوقف حركتها ، والتي لا تعرف هدفا غير ذاتها ، بل يسأل : لم كل هذا ؟ وما معنى تلك الرحلة كلها ؟ لان الفن وحده هو الذي يستطيع أن يتوقف ويتأمل ، وهو وحده الذي يستطيع أن يتخلص من حركة الحياة وعنائها وتطورها . ماذا فعلوا بك ؟ والسؤال ليس لك وحدك يا منيون بل هو موجه لكل طفل مسكين قذف به الى الحياة او حكم عليه بالحياة . انه سؤال يفيض بالشفقة والامومة والحنان . فالفن وحده هو الذي يستطيع أن يهب العزاء . والبيت الهادىء الذي تقف فيه تماثيل المرمر وتسأل كل طفل مسكين عن الظلم الذي عاناه هو المكان الوحيد الذي تستطيع منيون ان تستريح فيه مع كل الاطفال .

ومع ذلك فاذا كان الفن وحده هو الذي يهب العزاء ، فهو وحده الذي يعزل الانسان عزلة مخيفة ، لانه هو الفن « الميت » ، بيت الاموات الذي لا يجد الانسان فيه غير تماثيل المرمر الباردة ، غير القاعات التي تلمع ، والغرف التي تتألق بغير دفء ولا حياة .

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
● اعطنا حبا	« «	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

وليست منيون وحدها هي التي تريد الهرب الى هذا البيت ، لان كل فنان يريد أن يلجأ اليه ، على الرغم مما ينتظره فيه من العذاب، لا بل من نهاية كل عذاب . الشاعر نفسه قد لجأ اليه في شبابه على لسان طفله المسكين ((فرتر)) الذي هرب بالانتحار الى بيت العدم ((لانه لم يستطع أن يجد الحب في بيت الحياة)) ، أعني أن يتشبث بالحس ، وأوربست (في مسرحيته افيجينيه) قد هرب اليه بأشواقه الى العالم السفلي وحنينه الى أن ينزع من صورة تشنج الحياة ، وكذلك الشاعر المسكين ((تاسو)) الذي أضطر أن يقيم في بيت الفن بعد أن عانى مرارة الفشل في بيت الحياة . كلهم اخوة للطفلة المسكينة منيون ، وكلهم أبناء للشاعر جوته الذي أحس بقوة الفن القاهرة للزمن والقاتلة للحياة كما لم يحسها أحد بعده حتى ((توماس مان)) .

في هذا البيت الميت تقف تماثيل المرمر ، لا تتحرك ولا تتكلم ، حتى سؤالها الحنون تقوله العيون قبل أن تنطق به الكلمات . انها جامدة جمود الموت ، ساكنة سكون الخلد ، مع ذلك فنظرتها تسأل السؤال الرصين : ماذا فعلوا بك ، يا طفلتي المسكينة ؟ ماذا جنوا عليكم ، يا أيها الاطفال ؟

***

هكذا تتابع المقطوعات الثلاث واحدة بعد الاخرى ، كأنها محطات على طريق السفر الطويل ، على الدرب الذي لا عودة منه . لقد سارت من مملكة الحياة الزاهية الى مملكة الموت الساكنة ، حتى وصلت الى العدم الذي لا شكل فيه ولا شيء . ذلك هو حنين منيون الى سكون الابد ، الى خلود الميت أو الموت الخالد . والى هذا الهدف المخيف تحاول أن تفري فيلهام وتلح عليه متوسلة : الى هناك ! الى هناك ! يا سيدي وحبيبي . غير انها حين تصل الى المرحلة الاخيرة من رحلتها الرهيبة لا تعود تخاطبه ، لا تقول له يا أبي ، بل تقول ((أيها الاب)) ، ذلك لانها لم تعد تتوسل الى بشر لا يستطيع أن يمضي بها الى راحة الموت أو طمأنينة الخلود . ولذلك فلم تجد أحدا تخاطبه غير ((الاب)) في السماء .

ان صور هذه الرحلة تعود في أبواب الرواية الاخرى ، في المكان الذي نشأت فيه عند البحيرة التي ظنوا انها عرفت فيها ، في الموضع الذي دار فيه ذلك الحب المحرم بين أبيها وأمها الشقيقين . وكل هذه الامكنة تصبح رموزا في الاغنية الفريدة وخيوطا في نسج الرؤية الفريدة التي تحملها الطفلة المسكينة في صدرها . انه ذلك الشوق المخيف الى عالم تستريح فيه ، تبوح به الى حبيبها وراعيها حين تعبر عن حنينها الى الحياة نفسها والى بيت الخلود المقيم . لكنه يبدو ان هذا الشوق أخطر مما تظن هي نفسها . انه لا ينتهي الى الموضع الذي ينتهي فيه عذابها فحسب ، بل ينتهي فيه العالم بأسره فتنحلل عناصره وينحدر في قاع الكارثة . ولذلك لم تستطع أن تستنجد بالحبيب ولا السيد الذي يحميها ، وانما لجأت الى الاب أو الاله لعله يرحمها في ذلك الموقف العصيب . هناك يتلقى الاله المخلوق المسكين ويضمه اليه . وهناك يصل الحنين الى غايته ، ويخفت الصوت القائل : الى هناك ! الى هناك ! أود أن أمضي معك يا حبيبي .

***

ذلك هو الحنين الذي عبرت عنه ((منيون)) ودفعت حياتها من أجله ، كما كانت الضحية التي قدمها الفنان جوته الى معبد الفن القاتل المخيف ، قدمها وقلبه يتمزق ، حتى تكتب له الحياة كانسان يريد ان يعيش ليخلق . ومهما يكن رأينا في هذا الشوق الغريب المخيف ففي صدر كل واحد منا شيء من هذا الشوق ، يستيقظ لحظة في حياتنا فنهتف بأحبائنا ، أو نهتف بانفسنا أن لم نجد من يسير الى جوارنا : هل تعرف البلد البعيد ؟

القاهرة

عبد الغفار مكاوي

صدر حديثا

باباهمنغواي

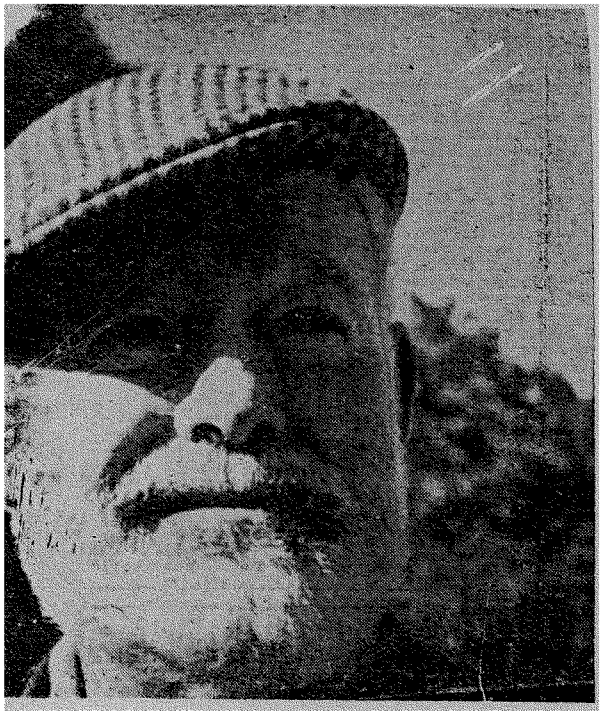

بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب اقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : ((اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة)) فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و ((بابا همنغواي)) هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياةهمنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحارا ، ولم يقتل خطا وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .

منشورات دار الاداب